٧ ــ أزواج عبد الله المأمون

هو «عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي» وأمه أم ولد، ويقال لها: «مراجل»، قال «السيوطي»: ولد سنة سبعين ومائة في ليلة الجمعة منتصف ربيع الأول، وهي الليلة التي مات فيها «الهادي» واستخلف أبوه، وأمه اسمها «مراجل» ماتت في نفاسها به، وقرأ العلم في صغره.

سمع الحديث من أبيه، وهُشَيْم، وعَبَّاد بن العوام، ويوسف بن عطية، وأبي معاوية الضرير، وإسماعيل بن علية، وحجاج الأعور، وطبقتهم.

وأدَّبه اليزيدي، وجمع الفقهاء من الآفاق، وبرع في الفقه والعربية، وأيام الناس، ولما كبر عني بالفلسفة وعلوم الأوائل، ومهر فيها، فجرَّه ذلك إلى القول بخلق القرآن.

روى عنه ولده الفضل، ويحيى بن أكثم، وجعفر بن أبي عثمان الطيالسي، والأمير عبد الله بن طاهر، وأحمد بن الحارث الشيعي، ودعبل الخزاعي، وآخرون.

وكان أفضل رجال بني العباس، حزماً، وعلماً، وصلحاً، ورأياً، ودهاء، وهيبة، وشجاعة، وسؤدداً، وسماحة، وله محاسن وسيرة طويلة، لولا ما أتاه من محنة الناس في القول بخلق القرآن، ولم يَلِ الخلافة من بني العباس أعلم منه، وكان فصيحاً مُفَوَّهاً، وكان يقول: «معاوية» بعَمْرِه، و«عبد الملك» بحَجَّاجِه، وأنا بنفسي.

وكان يقال: لبني العباس فاتحة، وواسطة، وخاتمة، فالفاتحة «السفاح» والواسطة «المأمون»، والخاتمة «المعتضد».

وقيل: إنه ختم في بعض الرمضانات ثلاثاً وثلاثين خَتْمَة، وكان معروفاً

بالتشيع، وقد حمله ذلك على خلع أخيه «المؤتَمَن» والعهد بالخلافة إلى «علي الرضا»[١].

وكان «المأمون» محباً للعدالة، رافعاً لواءها، حتى وإن مسَّت مصالح أقاربه، وأنزلت بهم الأذى، فقد أخرج صاحب «العقد الفريد» عن الشيباني، قال: حدثنا محمد بن زكريا، عن عباس بن الفضل الهاشمي، عن قحطبة بن حميد، قال: إني لواقف على رأس «المأمون» يوماً، وقد جلس للمظالم، فكان آخر من تقدم إليه ـ وقد هَمَّ بالقيام ـ امرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رثَّة، فوقفت بين يديه، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته! فنظر «المأمون» إلى «يحيى بن أكثم»، فقال لها «يحيى»: وعليكِ السلام، يا أمةَ الله! تكلمي بحاجتك، فقالت:

يا خيرُ مُنْتَصِفٍ يُهدى له الرشدُ ... ويا إماماً به قد أشرق البلدُ
تشكو إليك ـ عميد القوم ـ أرملةٌ ... عُدِي عليها فلم يُتْرَكْ لها سَبَدُ[٢]
وابتُزَّ مني ضياعي بعد منعتها ... ظلماً وفُرِّق مني الأهل والوَلَدُ

فأطرق «المأمون» حيناً، ثم رفع رأسه إليها، وهو يقول:

في دون ما قلتِ زال الصبر والجَلَدُ ... عني وأُقْرِحَ مني القلب والكبدُ
هذا أذانُ صلاة العصر فانصرفي ... وأحضِري الخصم في اليوم أعِدُ
فالمجلس السبتُ ـ إن يُقْضَى الجلوسُ لنا ... نُنْصِفْكِ منه ـ وإلَّا المجلس الأحَدُ

قال: فلما كان يوم الأحد جلس، فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته! فقال: وعليك السلام، ثم قال: أين الخصم؟ فقالت: الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين! ـ وأومأت إلى «العباس» ابنه ـ.

فقال: يا أحمد بن أبي خالد! خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم، فجعل كلامها يعلو كلام «العباس»، فقال لها «أحمد بن أبي خالد»: يا أمةَ الله!

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٦٩.
(٢) السَّبَدُ: الشعر، ويكنى به عن الإبل.

إنك بين يدي أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأمير، فاخفضي من صوتك.

فقال «المأمون»: دعها، يا أحمد! فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه، ثم قضى لها بردِّ ضيعتها إليها، وظَلَّم «العباس» بظلمه لها، وأمر بالكتاب لها إلى العامل الذي ببلدها أن يُوغِرَ ـ يسقط الخراج عنها ـ لها ضيعتها ويحسن معاونتها، وأمر لها بنفقة[1].

ومن شيم «المأمون» عفوه عند المقدرة، فقد ذكر «ابن عبد ربه» في «عقده»: كان للمأمون خادم، وهو صاحب وَضوئه، فبينما هو يصب الماء على يديه، إذ سقط الإناء من يده، فاغتاظ «المأمون» عليه، فقال: يا أمير المؤمنين! إن الله يقول: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عِمرَان، الآية: ١٣٤] قال: قد كظمتُ غيظي، قال: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان، الآية: ١٣٤] قال: قد عفوت عنك، قال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عِمرَان، الآية: ١٣٤] قال: اذهب فأنت حر[2].

وذكر «السيوطي» بعضاً من أقوال «المأمون»، قال: لا نزهة ألذ من النظر في عقول الرجال.

وقال: أعيت الحيلة في الأمر إذا أقبل أن يدبر، وإذا أدبر أن يقبل، وقال: أحسن المجالس ما نظر فيه إلى الناس.

وقال: الناس ثلاثة: فمنهم مثل الغذاء، لا بد منه على كل حال، ومنهم كالدواء، يحتاج إليه في حال المرض، ومنهم كالداء، مكروه على كل حال.

وقال: ما أعياني جواب أحد مثل ما أعياني جواب رجل من أهل الكوفة، قدَّمه أهلها فشكا عاملهم، فقلت: كذبت، بل هو رجل عادل، فقال: صدق أمير المؤمنين، وكذبت أنا، قد خصصتنا به في هذه البلاد، دون باقي البلاد، خذه واستعمله على بلد آخر يشملهم من عدله وإنصافه مثل الذي شملنا، فقلت: قم في غير حفظ الله، عزلته عنكم.

وقال في الشطرنج:

---

(١) العقد الفريد (١/٢٨ ـ ٢٩).
(٢) العقد الفريد (٢/١٨٧).

أرض مربعة حمراء من أدم ... ما بين إلفين معروفين بالكرم
تذاكر الحرب فاحتالا لها حيلاً ... من غير أن يأثما فيها بسفك دم
هذا يغير على هذا وذاك على ... هذا يغير وعين الحزم لم تنم
فانظر إلى فطن جالت بمعرفة ... في عسكرين بلا طبل ولا علم

وأخرج الصولي عن محمد بن عمرو، قال: دخل «أصرم بن حميد» على «المأمون» ـ وعنده المعتصم ـ فقال: يا أصيرم! صفني وأخي، ولا تفضل واحداً منا على صاحبه، فأنشد بعد قليل:

رأيت سفينة تجري ببحر ... إلى بحرين دونهما الجسور
إلى ملكين ضوؤهما جميعاً ... سواء صار دونهما البصير
كلا الملكين يشبه ذاك هذا ... وذا هذا وذاك وذا أمير
فإن يك ذاك ذا وذاك هذا ... فلي في ذا وذاك معاً سرور
رواق المجد ممدود على ذا ... وهذا وجهه بدر منير(١)

وأما نساء «المأمون» وأبناؤه، فقد ذكر «ابن عبد ربه» في «عقده» قال: ورزق من الولد «محمداً الأصغر» و«عبيد الله» من «أم عيسى بنت موسى الهادي»، وتزوج «بوران بنت الحسن بن سهل»، بنى بها سنة عشر ومائتين، ووهب لأبيها عشرة آلاف ألف درهم، ولولده ألف ألف درهم، وكان له عدة أولاد من بنين وبنات(٢).

وقد ذكر «ابن جرير الطبري» في تاريخه، خبر بناء «المأمون» ببوران بنت الحسن بن الحسن في شهر رمضان سنة عشر ومائتين، فقال:

ذكر أن «المأمون» لما مضى إلى فم الصلح إلى معسكر «الحسن بن سهل»، حمل معه «إبراهيم بن المهدي»، وشخص «المأمون» من بغداد حين شخص إلى ما هنالك للبناء ببوران، راكباً زورقاً، حتى أرسى على باب «الحسن».

وكان «العباس بن المأمون» قد تقدم أباه على الظَّهْر، فتلقَّاه «الحسن» خارج

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٨٦ ـ ٢٨٧.
(٢) العقد الفريد (٥/ ١٢٠).

obeikandi.com

عسكره، في موضع قد اتُّخِذَ له على شاطىء دجلة، بُنِيَ له فيه جَوْسَقٌ ـ قصر صغير ـ، فلما عاينه «العباس» ثنى رجليه لينزل، فحلف عليه «الحسن» ألَّا يفعل، فلما ساواه ثنى رجله «الحسن» لينزل، فقال له «العباس»: بحق أمير المؤمنين لا تنزل، فاعتنقه «الحسن»، وهو راكب، ثم أمر أن يقدم إليه دابته، ودخلا جميعاً منزل «الحسن»، ووافى «المأمون» وقت العشاء، وذلك في شهر رمضان منذ سنة عشر ومائتين، فأفطر هو و«الحسن» و«العباس» ـ و«دينار بن عبد الله» قائم على رجله ـ حتى فرغوا من الإفطار، وغسلوا أيديهم، فدعا «المأمون» بشراب، فأُتِيَ بجام ذهب فصُبَّ فيه وشرب، ومَدَّ يده بجام فيه شراب إلى «الحسن»، فتباطأ عنه «الحسن»، لأنه لم يكن يشرب قبل ذلك، فغمر «دينار بن عبد الله»، «الحسن»، فقال له «الحسن»: يا أمير المؤمنين! أشربه بإذنك وأمرك؟ فقال له «المأمون»: لولا أمري لم أمدد يدي إليك، فأخذ الجام فشربه. فلما كان في الليلة الثانية جمع بين «محمد بن الحسن بن سهل» و«العبّاسة بنت الفضل» ذي الرئاستين، فلما كان في الليلة الثالثة، دخل على «بُوران» وعندها «حمدونة» و«أم جعفر» وجدتها.

فلما جلس «المأمون» معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت في صينية ذهب، فأمر «المأمون» أن تجمع، وسألها عن عدد ذلك الدر، كم هو؟ فقالت: ألف حبة، فأمر بَعِدِّها، فنقصت عشراً، فقال: مَنْ أخذها فليردَّها، فقالوا: «حسين زجلة»، فأمره بردِّها، فقال: يا أمير المؤمنين! إنما نُثِرَ لنأخذه، قال: ردَّها فإني أخلفها عليك، فردَّها.

وجمع «المأمون» ذلك الدر في الآنية كما كان، فوضع في حَجْرِها، وقال: هذه نحلتك، وسلي حوائجك، فأمسكت، فقالت لها جدتها: كلمي سيدك، وسليه حوائجك فقد أمرك، فسألته الرضا عن «إبراهيم بن المهدي» فقال: قد فعلت، وسألته الإذن لأم جعفر في الحج، فأذن لها، وألبستها «أم جعفر» البَدَنَة الأموية، وابتنى بها في ليله.

وأوقد في تلك الليلة شمعة عنبر؛ فيها أربعون منًّا في تَوْرِ ذهب، فأنكر «المأمون» ذلك عليهم، وقال: هذا سرف، فلما كان من الغد دعا بإبراهيم بن المهدي، فجاء يمشي من شاطىء دجلة عليه مبطَّنة ملحَم، وهو معتم بعمامة حتى

دخل، فلما رفع الستر عن «المأمون» رمى بنفسه، فصاح «المأمون»: يا عم! لا بأس عليك، فدخل فسلم عليه تسليم الخلافة، وقبَّل يده، وأنشد شعره، ودعا بالخلع فخلع عليه خلعة ثانية، ودعا له بمركب وقلده سيفاً، وخرج فسلَّم على الناس، ورُدَّ إلى موضعه.

وذكر أن «المأمون» أقام عند «الحسن بن سهل» سبعة عشر يوماً يُعِدُّ له في كل يوم لجميع من معه جميع ما يُحتاج إليه، وأن «الحسن» خلع على القواد على مراتبهم، وحملهم ووصلهم، وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف، قال: وأمر «المأمون»، «غسان بن عباد» عند منصرفه أن يدفع إلى «الحسن» عشرة آلاف ألف من مال فارس، وأقطعه «الصِّلح»، فَحُمِلت إليه على المكان، وكان معدة عند «غسان بن عباد»، فجلس «الحسن» ففرَّقها في قُوَّاده وأصحابه وحشمه وخدمه، فلما انصرف «المأمون» شيعه «الحسن»، ثم رجع إلى فم «الصِّلح».

فذكر عن «أحمد بن الحسن بن سهل»، قال: كان أهلنا يتحدثون أن «الحسن بن سهل» كتب رقاعاً فيها أسماء ضِياعه، ونثرها على القواد وعلى بني هاشم، فمن وقعت في يده رقعة منها فيها اسم ضيعة بعث فتسلمها.

وذكر عن «أبي الحسن؛ علي بن الحسين بن عبد الأعلى» الكاتب، قال: حدثني «الحسن بن سهل» يوماً بأشياء كانت في «أم جعفر»، ووصف رجاحة عقلها وفهمها، ثم قال: سألها يوماً «المأمون» بفم «الصِّلح» حيث خرج إلينا عن النفقة على «بُوران» وسأل «حمدونة بنت غضيض» عن مقدار ما أنفقت في ذلك الأمر.

قال: فقالت «حمدونة»: أنفقت خمسة وعشرين ألف ألف، قال: فقالت «أم جعفر»: ما صنعتِ شيئاً، قد أنفقت ما بين خمسة وثلاثين ألف ألف إلى سبعة وثلاثين ألف ألف درهم، قال: وأعددنا له شمعتين من عنبر، قال: فدخل بها ليلاً، فأوقدتا بين يديه، فكثر دخانهما، فقال: ارفعوهما قد آذانا الدخان، وهاتوا الشمع، قال: ونحلتها «أم جعفر» في ذلك اليوم «الصِّلح»، قال: فكان سبب عود «الصِّلح» إلى مُلكي، وكانت قبل ذلك لي، فدخل عليَّ يوماً «حميد الطوسي» فأقرأني أربعة أبيات امتدح بها «ذا الرياستين»، فقلت له: ننفذها لك «ذي

الرياستين»، وأقطعك «الصِّلْح» في العاجل إلى أن تأتي مكافأتك من قِبَلِه، فأقطعته إياها، ثم ردَّها «المأمون» على «أم جعفر» فنحلتها «بوران».

وروى «علي بن الحسين» أن «الحسن بن سهل» كان لا ترفع الستور عنه، ولا يرفع الشمع من بين يديه حتى تطلع الشمس ويتبيَّنها إذا نظر إليها، وكان متطيِّراً يحب أن يقال له إذا دخل عليه: انصرفنا من فرح وسرور، ويكره أن يذكر له جنازة أو موت أحد، قال: ودخلت عليه يوماً فقال له قائل: إن «علي بن الحسين» أدخل ابنه «الحسن» اليوم الكتاب.

قال: فدعا لي وانصرفت، فوجدت في منزلي عشرين ألف درهم هبة للحسن، وكتاباً بعشرين ألف درهم، قال: وكان قد وهب لي من أرضه بالبصرة ما قُوِّمَ بخمسين ألف دينار، فقبضه عني «بُغَا» الكبير، وأضافه إلى أرضه.

وذكر عن «أبي حسان الزيادي» أنه قال: لما صار «المأمون» إلى «الحسن بن سهل» أقام عنده أياماً بعد البناء ببوران، وكان مقامه في مسيره وذهابه، وذهابه ورجوعه أربعين يوماً، ودخل إلى بغداد يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خَلَتْ من شوال.

وذكر عن «محمد بن موسى» الخُوَارَزْمي أنه قال: خرج «المأمون» نحو «الحسن بن سهل» إلى فم «الصِّلْح» لثمان خَلَوْن من شهر رمضان، ورحل من فم «الصِّلْح» لتسع بقين من شوال سنة عشر ومائتين[1].

وذكر «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: وأخرج الصولي، عن الحسين الخليع، قال: لما غضب عليَّ «المأمون» ومنعني رزقاً لي، عملت قصيدة أمتدحه بها ودفعتها إلى من أوصلها إليه، وأولها:

أجرني فإني قد ظمئت إلى الوعدِ ... متى تنجز الوعد المؤكد بالعهدِ
أعيذك من خلف الملوك وقد ترى ... تقطُّع أنفاسي عليك من الوجدِ
أيبخل فرد الحسن عني بنائل ... قليل وقد أفردته بهوىً فردِ

(١) تاريخ الطبري (٨/ ٦٠٦ ـ ٦٠٩).

إلى أن قال:

رأى الله عبد الله خير عباده فملَّكه والله أعلم بالعبدِ
ألا إنما المأمون للناس عصمة مفرقة بين الضلالة والرشدِ

فقال «المأمون»: قد أحسن إلّا أنه القائل:

أعينايَ جودا وابكيا لي محمَّدَا ولا تذخرا دمعاً عليه وأسعِدَا
فلا تمَّت الأشياء بعد محمَّدٍ ولا زال شمل الملك فيه مبدَّدَا
ولا فرح المأمون بالملك بعده ولا زال في الدنيا طريداً مُشَرَّدا

فهذا بذاك، ولا شيء له عندنا.

فقال له الحاجب: فأين عادة أمير المؤمنين في العفو؟ فقال: أما هذا فنعم، فأمر له بجائزة، وردَّ رزقه فيه[(١)].

وأخرج «السيوطي» عن مخارق، قال: أنشدت «المأمون» قول «أبي العتاهية»:

وإني لمحتاج إلى ظل صاحبٍ يروق ويصفو إن كدرتُ عليه

فقال لي: أعِدْ، فأعدت سبع مرات، فقال لي: يا مخارق! خذ مني الخلافة وأعطني هذا الصاحب[(٢)].

قال «المأمون»: ما انفتق عليَّ فَتْقٌ إلّا سببه جور العمال.

وكانت وفاة «المأمون» سنة /٢١٨/ هـ لثمان خَلَوْن من رجب بالبذندون.

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٨٢ ـ ٢٨٣.
(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٨١.